الفصل الثالث

عبدالرحمن بدوي وجوديٌ يعظ

بين الفلسفة والأدب

لم يسلك النهضويون التنويريون - سواء في أوروبا أو في الثقافة العربية الحديثة - سبيلاً واحداً لإيقاظ الرأي العام وتنبيه الأذهان وتوعيته بما ينبغي فعله لتقدم المجتمع وانتقاله من طور الجمود والتخلف والتعصب والاستبداد إلى رحاب العلم والتجديد والتحديث والتسامح والحرية. فقاموا بثورات فكرية عن طريق المؤسسات التعليمية والتربوية والتثقيفية وعقدوا عشرات المساجلات حول قضايا (التراث والتجديد والحرية والوعي والإصلاح) وأقاموا مئات الندوات والجماعات الأهلية والصالونات الأدبية وحلقات التوعية والإرشاد في المقاهي ودور الصحف وكتبوا آلاف المقالات - بالعامية والفصحى في صحف الرأي - لمخاطبة الجمهور والطبقة الوسطى، وتنوعت مصنفاتهم: - فحققوا النفيس من الموروث وترجموا الطريف من الوافد الأجنبي وألفوا الكتب ونظموا القصائد وابتدعوا القصص والحكايات والمسرحيات والروايات وجعلوا منها أوعية لبسط الأفكار وعرض القضايا

وانتخاب الحلول للمشكلات التي يعاني منها الواقع المعيش عقدية كانت أو سياسية أو أدبية أو فنية أو لغوية أو اجتماعية وقد تباينت رؤى التنويريين تبعا للمشروعات التي قدموها تجاه المشكلات والقضايا المطروحة فظهر منبر المحافظين الرجعيين ومنبر العلمانيين المستغربين وبينهما منبر الوسط الذي كان يمثله أئمة المحافظين المستنيرين وانبثقت من هذه المنابر العديد من المدارس الفكرية التي كان يجمع أعضاءها مبدئي الصحبة والاقتناع.

ويعد عبدالرحمن بدوي (1971 - 2002) من أواسط المثقفين المصريين الليبراليين الذين ينتمون إلى مدرسة محمد عبده ثم مدرسة مصطفى عبدالرازق الفلسفية، وهي المدرسة الأم التي تخرج فيها معظم أساتذة الفلسفة في العالم العربي والإسلامي - بالتتلمذ المباشر في الجامعة أو غير المباشر خلال المؤلفات واعتناق الأفكار والترويج لها -[1].

والمشهور عن عبدالرحمن بدوي أنه رائد الفكر الوجودي في الثقافة العربية ويعتبر من كبار المفكرين الموسوعيين إذ بلغت مصنفاته نحو 150 عملا في ميدان التحقيق والترجمة والتأليف. ولم تكن إجادته للعديد من اللغات الأجنبية وراء هذا الزخم المعرفي فحسب بل كانت قدراته الفائقة على التأليف بين الأفكار والجمع بين الحقول المعرفية المختلفة في سياق واحد، الأمر الذي أثمر ذلك المصنف النادر الذي سوف نتحدث عنه في السطور التالية: - **ألا وهو كتاب (هموم الشباب)**[2]، وهو مؤلف أدبي أو إن شئت قل

(1) عصمت نصار: الفكر المصري الحديث بين النقض والنقد، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط3، 2007، ص 171.

(2) عبدالرحمن بدوي: هموم الشباب، ، النهضة المصرية للنشر، الطبعة الثانية، 1946.

فلسـفي أدبي جمع فيه المؤلف آراءه وأفكاره ونزعاته وسكبها في قالب أقرب للروايـة منه إلى القصة القصيرة، وهذا الدرب من التأليف قد انتحله من قبله التنويريون الأوربيون مثل «فولتير» في قصته (كانديد) ومسرحية (سقراط) ذلك فضلا عن معظـم الوجوديين المعاصرين. أما في الثقافة العربية الحديثة فقد انتهجه «أحمد فارس الشـدياق» في كتابه (السـاق على السـاق)، و«علي مبـارك» في كتابه (علم الديـن)، و«أبونضارة يعقوب صنـوع» في أقاصيصه وحكاياته، و«عبدالله النديم» في التنكيت والتبكيت، و«محمد المويلحي» في حديث عيسى بن هشام، و«مصطفى عبدالرازق» في مذكراته (مذكرات الشيخ حسن الفزاري).

وتقـع الرواية في 182 صفحة ناقش فيهـا المؤلف العديد من القضايا التي تهم الشـباب منهـا (تقليد الأجانب - الانحراف الجنـسي - حرية الاختلاط والعفـة - الذوق الفني وموسـيقى الجـاز - أكذوبة الغرب المعلم والمتسـامح والداعـي للحرية والإخـاء والمسـاواة - قضية الوافد والمـوروث والمجون والاعتـدال - واليأس والانتحـار) وذلك كله في سـياج روائي دارت أحداثه بين إحدى بنات الهوى ورفيقاتها من السـاقطات وأحـد أصدقاءه - الذي لم يصرح باسـمه - ورفقاءه من الشباب المؤمن بالحرية (كاتب - فنان - طيار - عالم). وحدد زمان الرواية بالفترة الممتدة من أخريات الثلاثينيات إلى نهاية الحـرب العالميـة الثانية. أما المكان فعينه في الملاهـي التي تجمع بين المراقص والبارات، ثم استحضر خلال السرد الروائي الريف المصري وشارع الأهرام وسفح المقطم وأخيرا السجن وذلك في مساحات محدودة من أحداث الرواية. والجديـر بالإشـارة أن المؤلف حرص على تصدير الروايـة بتحذير ينهى فيه القـراء عن أي محاولة للربط بين شـخصية المؤلف وبطـل الرواية جاء فيه:

« كل محاولـة للربـط بين بطـل هذا الكتـاب وبين مؤلفه مصيرهـا الإخفاق الشنيع فما هو إلا عرض لمأساة صديقٍ أفضى إليَّ في لحظاته الأخيرة بمكنونها، وما كان لي بها ولا بالأشـخاص الآخرين معرفة من قبل على الرغم من وثاقة مـا كان يربـط بينه وبيني من صلة روحية عميقة. وما أنا بمسـئول عن شيء فيه دق أو جل، فليطمئن للجميع بالهم من هذه الناحية، وكل مسئوليتي في أني آثرت جانـب النشر على جانب الطي، وهو قد ترك لي الأمر أختار أحدهما. فإن وجد فيه الشباب القلق من أبناء هذا الجيل صورة صادقة لشيء ما يجول في نفوسـهم حينـما ينطوون عليهـا، وكان في هذا بلسـم لقلوبهـم المكلومة بجراح الشك والحيرة والتوثب نحو المجد ونشدان البطولة في أروع معانيها، فبهـا ونعمت. وإن رأوه من القتامة والغموض والإسراف في القلق والقسـوة في تشريـح الحياة بحيث لا يتصل بنفوسـهم القانعة الراضية السـمينة فهنيئا لهم هذه البراءة والصفاء ولسـت ألتمس منهم أن يعكروهما بقراءة مثل هذا الكتـاب، وكل ما أسـألهم إيـاه أن يضعوا إكليلا من الزهـر الأزرق على قبر بطله الشهيد إن مروا به عابرين».[1]

وأعتقـد أن هذا التحذير يحمـل العديد من الدلالات أولهـا تقية المؤلف وخوفه من سخط الجمهور وغضبة ممن يحيطون به، ويؤكد ظني هذا إخفاءه أسـماء كل أبطاله ووصف قلمه بأنه مجرد راوي لما قُص عليه بيد أن المسحة الفلسفية والإحالات المعرفية التي وردت على ألسنة المتحاورين وإسقاطاته عـلى الأماكـن وتحليلاته للأحـدث كل ذلك ينبـأ بأنه البطـل الحقيقي لهذه الرواية.

(1) عبدالرحمن بدوي: المرجع نفسه، التنبيه.

وعـلى أي حال فإن التحذير لم ينبأ عن ذلك فحسـب بل أفصح عن رغبة المؤلف في توجيه الخطاب إلى الشباب المصري بمنأى عن لغة الوعظ التقليدية، وذلـك لأنها تتعارض مـع نزعته الوجوديـة التي ترفض التوجيه أو الإرشـاد من الآخر الذي يشـكل عنده أحد القيود التي تعيق اكتمال هويته وتسـلبه القدرة على التدبر والاختيار بغض النظر عن القيم التي وضعها المجتمع لتلك الاختيارات.

وصفوة القول أن المؤلف لم يرد بخطابه هذا أن يشكل ثورة على المألوف بل بسـط رؤيته في هدوء بمعزل عن ميدان النزال وحلقات السجال، ويبدو ذلك في دعوته القراء غير القانعين بما في الكتاب بالترحم على صاحب الحكاية فحسب.

ولا يفوتنا ذكر نص الإهداء الذي خطه المؤلف لقرائه وذلك لأنه يكشف عن تلك النزعة الوجودية والأسـلوب الرمزي والقدرة الفائقة على استخدام أسـلوب التناص والتوجيه الإيحالي والإشـاري ونصوص كامنة وراء الستائر السرديـة فهـا هو يقـول: «إلى الأفعى الرهيبـة التي أوردتني مـوارد الخطيئة في جحيـم الشـهوات فاقتحمت عليّ برجـي العالي، أنا الأعـزل، واختطفتني ثـم قذفت بي من حالـق التيار المتدفق لنهر الحياة، وما كنت أعلم السـباحة فهويـت في القاع مرات كانت تنتشـلني فيها بشـصها الذهبـي الزائف فلا ألبـث حتى أغوص من جديد في أسـوأ قرار إلى أن أُسـدل السـتار على ختام تلك المأسـاة. إليها أهدي هذه الصفحات التي سطرتها بيمينها، سائلا الله لها الغفران ولي الرضوان. (شهيد الشباب)»[1].

(1) عبدالرحمن بدوي: المرجع نفسه، الإهداء.

ويمكننا تتبع تلك الرموز (الأفعى - البرج العالي - نهر الحياة - الستار - الغفران والرضوان - شهيد) فهي بدون أدنى شك يمكن صياغتها بصيغ كثيرة وتوليد منها عشرات الصور وذلك إذا ما انتحلنا التفكيك في القراءة.

أما مضمون الرواية فيناقش كما أشرنا أشهر قضايا الشباب الريفي المصري في هذه الحقبة ألا وهي قضية الاختلاط بين الجنسين في المدينة حيث الإباحية والمجون وأماكن اللهو وعشرات الساقطات الغانيات والمعروفات ببنات الهوى وما يحدث في المراقص من فجور وعناق وموسيقى صاخبة تخاطب الجسد أكثر من مداعبتها للذوق والمشاعر، علما بأن بيوت الدعارة والممارسات الجنسية كانت مباحة في مصر منذ القرن السابع الميلادي وذلك في ظل حكم الرومان والفرس ثم في عهد العثمانيين وقد ازدهر البغاء مع تزايد الأجانب في مصر بداية من الحملة الفرنسية والتوسع في جلب العمالة الأجنبية في عصر محمد علي الذي شرع في تنظيمها عام 1837م، غير أن تقنين تلك المهنة لم يحدث قبل عام 1885م (الترخيص) حتى قانون إلغاء البغاء عام 1949م.

ويعني ذلك أن المؤلف كان محقا في وضع قضية الممارسات الجنسية على رأس الموضوعات الخاصة بهموم الشباب، وأعتقد أنه كان مصيبا في ذلك فتكشف الإحصائيات المعاصرة أن الشباب المصري من أكثر شباب العالم إطلاعا على المواقع الإباحية ويحتل المرتبة الرابعة بعد أمريكا وإيران والإمارات[1]، فما زالت قضية الجنس والدعارة المباشرة وغير المباشرة والممارسات الشاذة تشغل الحيز الأكبر في تفكير الشباب في الريف والمدن

(1) موقع أخبار الساعة، 27/ 12/ 2012.

على حد سواء، والأغرب من ذلك أن العديد من المؤسسات الإعلامية الغربية غزت الأسواق منذ سبع سنوات بمئات أفلام الكرتون التي تصور باستفاضة كل الممارسات الجنسية، والكارثة أن الكثير منها باللغة العربية وتعرض للأطفال مع موضوعات أخرى ليست أقل خطورة منها على مشاعرهم وأذواقهم وأذهانهم دون أدنى رقابة.[1]

❐❐❐

ضوابط الحرية

لم يختلف بدوي عن سابقيه من المجددين والمستنيرين في وضع قضية الأصالة والمعاصرة أو القديم والجديد على رأس برنامجه الإصلاحي. فنألفه يناقش هذه القضية في سياق روايته وعلى لسان أبطالها بأسلوب أقرب إلى الوعظ المستتر منه إلى التوجيه المباشر. ويبدو ذلك في حديثه عن المواخير والمراقص وبنات الهوى وموسيقى الجاز وذلك على نحو استقرائي، الأمر الذي يضفي على حديثه مسحة علمية ليست وليدة حكمة القدماء بل هي نتاج التجربة والممارسة الوجودية. كما يحاول مفكرنا الربط بين النقد الاجتماعي والأخلاقي والسياسي في سياق واحد وذلك بنسيج حريري من صنع الأحداث والحوارات التي تدور بين أبطال الرواية، وذلك ليثبت أن الحرية التي ينشدها لا تعني جحود قناعات الهوية، حتى لو كانت مستمدة من القيم التليدة، وأن التقليد غير الواعي يعد كذلك خيانة لهذه الحرية وتضحية لتفرد الهوية، حتى لو كان هذا التقليد للفلاسفة الوجوديين الأوربيين. فها هو يقارن بين

(1) عصام سعد: من يحمي أطفالنا من قيم أفلام الكرتون، مقال على موقع أخبار مصر، 21/ 4/ 2016.